يسوع الذي هو البشريّ المأخوذ من مريم . فاذا كان الامر على هذا (٢٦) يطل ان يكون يسوع الذي هو البشريّ المأخوذ من مريم ازليًّا قديمًا خالقًا مولودًا من ابيه قبل كلّ الدهور وليس بمخلوق . ومما يدلُّ على ذلك دلالة واضحة هو اننا نعتقد انّ يسوع الذي هو البشري مأخوذ من مريم (١ . تمّ الفصل الاول بعون الله وتأييده

(له تابع)

سرّ الامير

رواية سريّة بتصرُّف بقلم حضرة المنوري بطرس صنير

١

في سفح جبل اللكّام المشرف على انطاكية قريباً من مقام القديس سمعان العمودي كان يرتفع في اواسط القرن الرابع عشر قصرُ أُسرةٍ نصرانيَّة تُعرف ببني سلّمة وهي أُسرة عريقة في الشرف من اقدم أُسر بني تغلب الراقي اصلها الى القرون السابقة للهجرة . اشتهر من ابنائها كثيرون ممّن أدّوا اجلّ الخدم للدين والوطن

وكان قصرُهم هذا يستوقف الابصار بفخامة ابراجه العالية وابنيته الشاهقة تحدق بها السهول الفسيحة والبساتين المخصبة وبقربها قرية عامرة وكلّها من املاك القصر يسمى بحراثة تربتها قوم من اهل تلك الناحية . امّا اليوم فقد حلّ بهذا الصَّرح الفخيم طوارئ الحدثان وتوالت عليه السنون فاصبح اثرًا بعد عين ساد عليه الخراب

(١ في كلام ايليّا هنا بعض الالتباس . فانهُ يُشعر ببدعة النسطوريَّة التي تجعل للسيّد المسيح اقنومين قائمين بذاتهما . والصواب انّ المسيح ذاتٌ واحدة واقنوم واحد وما يقولهُ هنا عن يسوع البشري وعن الكلمة الازليَّة لا يصحُّ الّا على الطبيعتين اي الناسوت واللاهوت في يسوع المسيح . فسواء قيل يسوع او قيل المسيح فكلاهما الربّ الواحد والاله الازليّ المولود من الآب قبل كلّ الدهور من حيث طبيعتهِ الالهيَّة والمولود في الزمان من مريم العذراء من حيث الطبيعة البشريَّة . فسواء قيل يسوع ام قيل المسيح فالمراد واحد اي ابن الله الازليّ المتخذ في الزمان الطبيعة البشريَّة القائمة باقنومهِ الالهي الوحيد والمتّحدة بطبيعتهِ الالهيَّة . وبهذا ايضاً يسقط ما ورد في بعض النسخ تأييدًا لمذهب النسطوريَّة فضربنا عنهُ صفحاً

وأقفلت منهُ الابواب فخلا من سكّانهِ ونسجت العنكبوت خيوطها على جدرانهِ

وكان صاحب القصر في السنة ١٣٦٠ وهو تاريخ الحادثة الغريبة التي نرويها رجلًا في الثلثين من عمرهِ اسمهُ الحارث بن سلّمة وقد انقرضت هذه الاسرة في كلّ فروعها ولم يكن يُعرف بهذا الاسم غير الحارث هذا والاهلون يخلصون لهُ الحبّ لما عرفوا من مآثر اجدادهِ . وكانوا يعتبرون زوجتهُ السيدة مارية ايّ اعتبار وهي على جانب عظيم من الفضل والفضيلة والاريحيّة والتقى تعيش مع زوجها في رفاهة ووفاق ولها من سعة الاملاك وطائل الثروة وكثرة الخلّان وطاعة اهل تلك المقاطعة ما يحبّب الى المرء حياتهُ ويسعدهُ في دنياه

وقد توالت عليهما اسباب الهناء يوم رُزقا ولدهما البكر ففي صباح ذاك النهار قبل ان تذاع البشرى خفقت الأعلام الزرقاء في اعالي الجدران خفقانها ايام الانتصار وقُرع الجرس الكبير في قبته الشاهقة فبلغت رناته المبهجة كل الانحاء . وما علمت الناس بفيضان هذه النعمة الجزيلة على اميرهم حتى تهافتوا زرافاتٍ ووحداناً الى القصر يزجون ويطربون باناشيد التهاني داعين لولي العهد بالرغد والسعادة ولابيهِ باطالة البقاء

وقد صُرفت بقيّة ذاك النهار في تهنئة حفلات العماد التي جرت صباح اليوم التالي فرفع القوم على ممرّ الموكب اقواس النصر من الغار والرياحين ونثروا ازهار الورود على الطريق من القصر الى الكنيسة حيث أُقيمت حفلة باهرة وأُطلق على الامير اسم نعمة غير انهُ اثناء القدّاس الذي قُدّم بعدئذٍ شكرًا لله على منّتهُ العظمى والحالة الولد الكريم من غوائل الحدثان ليقضي حياةً تليق بالدم الشريف الذي يسري في عروقه حدّث صدفة امرٌ اهتمّ لهُ الحضور اهتماماً وهو ان الشموع انطفأت على حين فجأة بهبوب ريح شديدة فتحت نوافذ الكنيسة ممّا جعل الناس يتشاءمون بمصير الامير الصغير

ولمّا كان المساء ساد السكوت وأخلدت الجماهير الى الراحة وفُسح مجال للامير حارث ان يجلس على مقربة من سرير ولي عهدهِ يدرس ملامح وجههِ فيبني على مستقبله قصور آمالهِ البهية . غير ان ما اختبرهُ من تقلّبات الدهر المدهشة جعلتهُ ألّا يأمن على ابنهِ من سهامهِ الحادّة فيتراءى لهُ ابنهُ تارةً في ذروة العزّ قابضاً على ناصية المجد والشرف رافلًا في مطارف الرغد والهناء ولا يهتم ان يشاهده في اقصى دركات

الذل والهوان محتسياً ثفالةَ كأسٍ اوّلهُ حلوٌ وآخره مرّ المذاق وهذه سُنّة الزمان في ذويهِ

وبينما هو سابح في بحر هذه الهواجس واذا بطارق قرع باب القصر بشدة أيقظتهُ من سُباتهِ العميق فقيل لهُ ان فارساً متشحاً برداء اسود يجلبه من قمة رأسه الى اخمص قدميه ولهُ عينان وقّادتان تلمعان في سواد الليل الحالك كانهما شهابان ووراءهُ خمسة فرسان على شاكلته وهو يطلب بالحاح مقابلة الامير حارث على انفراد. وما هي برهة حتى اختلى والفارس في احدى غرف القصر يتحادثان واستغرقت المحادثة مدةً خرج بعدها الفارس وتبعه ارفاقه وابتعدوا عن ظهور جيادهم دون ان يعرف احدٌ شيئاً من امر هذه المواجهة

٢

مضى على هذه المقابلة التي شغلت الافكار مدةٌ من الزمان . وكان الامير نعمة الصغير ينشأ في اثنائها على مهد الهناء والدلال مغتذياً بلبان الحنان الوالدي . ولم يكن ألطف من منظر ذاك الامير الجميل اذ كان يسند رأسهُ على صدر امهِ وهي تسير به الهوينا في البساتين النضرة ولم تكن تتأخر عن ارضاعه مع الحليب اشرف الخلال والمزايا . فكانت كأنما التقت بفقير تضع في يدِ ولدها قطعاً من النقود ليدفعها اليه والابتسامة تزين ثغره الدرّي . على خلاف والده الذي ما فتئ واجماً كسيف البال خاشع الطَّرف تُقرأ آياتُ الكآبة على جبينهِ لا يقشع عنهُ غمامَ الهموم الّا رؤيةُ حركات ابنهِ البهجة وسماع مناغاتهِ المطربة ثمّ لا يلبث ان يكفهرّ وجههُ فيزيد تجهُّماً وتقطّباً تمّا حيّر امره اهل بيتهِ ومعارفهِ

فعيل صبرُ زوجتهِ وعزمت يوماً ان تستفد كفاءة جهدها لتقف على مخبآت ضميره . ففي احدى ليالي الشتاء وقد هبّت العواصف واشتدّ البرد كان الامير جالساً في احدى قاعات القصر ليصطلي قرب موقد وعلامات الكآبة بادية على وجهه اكثر من سائر الايام . وكانت الاميرة جالسة بقربه تنشد ابياتاً ارقّ من النسيم الى ان نام وليدُها على اتغامها الشجية نومةً هادئة ترفرف حواليه ملائك السلام فنقلتهُ الى غرفة ثانية ورجعت قرب زوجها وكان ابنُها نعمة بلغ الثالثة من عمره منذ يومين

فافرغت حديثها معهُ بالطف قالب الرقّة والرجاء وقالت : « قد خلا بنا المقام يا عزيزي الحارث فقل لي بحقك ما سبب كآبتك؟ الستُ انا اشدّ الناس حبّاً لك؟ أو لا

تعتقدني اني شريكة حياتك في السرّاء والضرّاء»

فلم تنل على كلامها هذا الرقيق جواباً : فاردفت باكثر حنانا :

« تُرى ما الذي ينقص لسعادتك؟ فهذا نعمة ثمرة حبنا ومطلع انسنا وموضوع آمالنا أنستَ تجد فيه ما يُجلي عن قلبك الكروب ويحلي مرارة عيشك ؟»

ثمّ انتظرت جواباً لم يُجزهُ عليها الحارث فسألت بإلحاح :

« هل احزنك نقصان حاصلاتنا سنةً عن سنة ام انت آسفٌ على ما بعتهُ من املاكنا ؟ فلا كان مالٌ يذهب بذهابه الهناء ولا كانت حياة مبنيّة سعادتها على الاملاك !»

قال الحارث وقد زادت نفسهُ انقباضاً : « ان في خزانة الصدر سرّاً عائلاً يا ماوية اذا اطّلعت على حقيقته كان سبب هلاكك فكفّي عن اللجاج . فاني لستُ بسبب لكِ اذية . اشفقي ولا تلحّي »

ثم اخذ يدمدم كلمات متقطعة كمن يخاطب بها نفسهُ ويقول : « لعلّه قادم بعد قليل . . . قبّح الله وجهك ايها الفارس الاسود . . دَع الولد . . » ولم ينتهِ من دمدمته حتى ألقت الاميرة نفسها على الخشيش مستغيثةً وقد طار لبّها شعاعاً وقالت تخنقها العبرات :

« ماذا تقول . . هل حياة وحيدي على شفير الهاوية . يكاد هذا الكتمان يقتلني . اريد بلا مراجعة ان توقفني على الحقيقة ! فحياتي ونفسي فداء وحيدي وفداك !»

فقال الحارث : أعوت أهون ايتها العزيزة علي وعليك من ايقافك على هذا السرّ . ومع ذلك ان لم يكن من اخبارك بدٌ فاسعي وتجلّدي :

« دعا صوت الشرف احدُ الامراء للمدافعة عن المظلوم في حرب جرت بين الدولة وقبائل العربان فلبّى الامير هذا الصوت وسار بتقدّمة الجيوش متّخذاً معهُ ولدهُ الوحيد البالغ من العمر عشرين ربيعاً . فساء المنقلب وقُتل الامير تحت العجاج وبقي ابنهُ يدافع الى النهاية وكان برفقته جنديٌّ يساعدهُ سرّاً يقوم بخدمته ويحيط علماً بكل احواله

« ولما انتهت المعارك وكان الامير الفتى عائداً الى قصره قلب لهُ خادمهُ ظهر المجنّ بين الفيافي والقفار وقتلهُ شرّ قتلة ورمى بجثته بين الجنادل وتوجّه نحو قصره

يحمل اسمهُ واوراقهُ واموالهُ ووضع يدهُ على املاكه مدّعياً انهُ هو ابن الامير الذي شاع قتلهُ

«واذ كان بين الامير القتيل والخادم الخائن مشابهة بالهيئة والملامح والسنّ وكان هذا قد اطّلع على سرائر الامير ولهُ معرفة بركلانهِ واملاكهِ انطلت حيلته على الجميع وصار هو الآمر الناهي ولا معارض . وخدمهُ حسنُ البخت فاقترن بفتاة لاحد امراء تلك النواحي فرزق منها ولداً نجيباً وظنّ الاثيم انهُ بين الرفاه والاقبال وبين الكأس والوتر ينسى ما جنت يداه غير انّ نخز الضمير جعلهُ دائماً قلق البال في حبسه الذهبي

«ففي احدى ليالي الشتاء قرع بابَ قصره فارسٌ غريب وطلب مواجهتهُ واما اختلى بالامير قال لهُ : «انا على طليعة من امرك وعارف انك قاتل سيدك مهما لبست من الازياء . ولديَّ على ذلك بيّنات قاطعة» . وذكرها للامير بكلام لم يجد معهُ سبيلاً الى النكران . ثمّ اردف : «وسأذهب نهار غدٍ ارفع امرك الى العدالة فيعلم القاصي والداني ان الذي يظنّه الناس اميرًا شريفاً ما هو الّا قاتل سارق غدّار . . . على انني أُكلّ كتمانَ حقيقة حالك والعفو عن جريمتك لامرٍ ليس لهُ ثانٍ وهو ان تسلّمني ابنك بعد ثلاث سنوات» . وكرّر لهُ : «خذ لنفسك احد الامرين ابنك ام المشنقة» . وأبرز الفارس من جيبهِ ورقة تعهّد وطلب من الامير ان يوقع بذيلها امضاءه . ومن نكد الدنيا على الحتال الشقي اختار الامر الاول ورضي بالعقد . . . وبعد هذا وذاك . . . أمضيتُ التعهّد للفارس . . . .»

فكانت كلمة «امضيتُ» سهاماً بقلب زوجتهِ وصاعقة انقضّت على رأسها فصمتت للحال من صميم فؤادها زفراتٍ مذيبة يتخللها اصوات نحيب مرعبة . ثم وقعت على الارض لا حراك لها . . .

وقد غاب هدى الامير وطار صوابهُ من شدّة الاضطراب فلم ينتبه لزوجتهِ من فداحة المصاب ووطأة التأثير وأخذ يذهب ويجيء في تلك القاعة كأن بهِ جنوناً ووجبات قلبهِ الخفاقة بين حنايا صدرهِ يكاد يحصيها السامع

٣

اما الفارس الذي اتى على ذكره الامير حارث القاتلُ فكان عدوّهُ الألدّ لهُ عليهِ

ثأر وتغلي في صدره مراجل الحقد والبغضاء . فاستفد الامير الكاذب كل الحيل لقتله او ارضائه . ولكن مضت سنوات ثلاث من غير جدوى وحاول الامير ان يهجر البلاد بيد ان عدوه كان واقفاً له بالمرصاد يتهدده بافشاء السرّ لاول حركة يُبديها . ولا غرو فقد كان ذلك الفارس اشبه بسيف انتضاهُ الله على رأسه ليقتصّ منّ سفك دم البريّ واستولى على املاكه ظلماً . غير ان حارثاً كان يعلّل النفس بأنه يجد مع توالي الايّام مخرجاً من هذا المأزق الحرج لكنّ عين الله لم تَنَمْ . . .

وبينما الامير يتمشى في القاعة اذا بطارق يطرق باب القصر تكراراً . وكان القادم ذاك الفارس نفسهُ الذي اختلى مع صاحب القصر من ثلاث سنوات في مثل هذا الليل المدلهمّ ومعهُ فرسان خمسة . فُتح لهم وأُدخل الفارس على الامير

فقال الفارس متهكماً : « ترى يا سموّ الامير اني لم أُخلف بوعدي فهل انت وافٍ بعهودك ؟ هاك توقيعك . اتعرف خطك ؟ اني اعتبر هذا التوقيع اكثر من كل ما لديك من اوراق الامارة ومستنداتها ومن كل شهادات النسب . فقد حان لك ان تسلّمني ابنك هذه الساعة . اين وريث مجدك الاثيل الذي نلتهُ باشرف الطرق ؟ فقد اصبحتُ احقّ به منك »

فوضع الامير اصبعهُ على فم الفارس مشيراً الى زوجته وقال : « صه كي لا تسمع » قال الفارس : عجّل عليّ بالغلام والّا سيلو المشنقة غداً رأس شريف »

ودخل الغرفة المجاورة حيث ننظر الوليد نائماً وهمّ بأخذه

فهبّ الحارث واقفاً بينهما صارخاً « بُنيّ بُنيّ ! حياتي فدى عن ولدي » وكان جواب الفارس على هذا الصوت المذيب ضحكة امر . والسخريّة . واذ رأى الاميرّ يدافع عن ولده وكأنهُ أُصيب بشعوره امر جنودهُ ان يربطوهُ بالحبال ويركبوهُ احد الجياد فقطعوا وولّوا مسرعين في ذاك الليل الحالك والمواصفُ يملأ صريرها الآفاق

وفي صباح اليوم التالي وصلت فرقة من رجال الدرك وقد عرفوا بما جرى في القصر فلم يجدوا فيهِ سوى الخدم قرب سيدتهم متسابقين الى خدمتها

لكنها بعد ان افاقت من غشيانها امعنتها حمّى شديدة غيّبتها عن الرشد من جرّاء ما كان في تلك الليلة المشؤومة . وكانت في هذيانها تتكلّم ببعض كلمات متقطعة اطّلع منها اهل القصر على حقيقة امر اميرهم وسرّه الهائل . وامّا هذه

السيدة المسكينة وقد كانت سليلة الأمراء حقيقةً وانطلت عليها الحيلة مدة من الزمان فبلغ منها التأثير اقصى مبلغه وأردى بحياتها فقضت نحبها وابل العبرات وسلّمت روحها النقية بين يدي الملائكة امثالها

حدّث ولا حرج عمّا جرى في القصر حينئذٍ وقد اضحى كل ما فيه غنيمةً باردة تتناوله ايدي الشارد والوارد وظلّ عقيب ذلك لا يأوي اليه الّا البوم والغربان . فانتشر الخبر في كل الأنحاء. وعرف الجميع ان الامير المزعوم رُفع امره الى ديوان العدالة الاعلى وأُودع سجناً مظلماً الى ان يصدر الحكم في حقّه

٤

واما الامير الصغير نعمة اذ اصبح يتيماً اخذته مربيته الى قريتها ورتّبته بعرق جبينها ودموع حنانها متعلقة به تعلقاً شديداً وكانت كل سنة تذهب به الى ضريح والدته فيركعان ثمّة للصلاة لاجل من كان يدعوها امهُ السماوية . وكان واحد من اقرباء امه يمدّهُ احياناً ببعض المساعدة الى ان شبَّ على اكرم الخلال وعُدَّ من صفوة الشبّان

غير انهُ وقف اخيراً على خبر ابيه فكان هذا الخبر علقماً كدّر صفاء عيشه ونغّص كل ايامه . ولم يزل حديث ابيه في افواه الناس حتى كان يخيَّل لهُ ان القوم يشيرون اليه بالاصابع قائلين : « هذا ابن الامير المحتال »

فلمّا صار لهُ من العمر خمس وعشرون سنة وقد ماتت مربّيته الامينة رأى ان لا مناص لهُ من تلك الاكدار الّا باعتزال الوطن واقامته في بلاد بعيدة لم يبلغ اليها خبر ابيه . وكان يودّ ان يزهد بالدنيا ولباطيلها وينبذ كلّ ترّهاتها فعزم على الانضمام الى رهبان في جبال لبنان يتفانون في خدمة الغريب ويقاسون في سبيل الغرباء والمسافرين ضروب المشقات وذلك ليكفّر عن قسوة ابيه وطمعه الذي جرّهُ الى اقظع الآثام

فنهض صباح احد الايام يؤمّ الدير وبعد ان مشى نحواً من ستة ايام كادت تغرب الشمس وهو في وسط احدى غابات الارز المطلّة على وادي نهر قاديشا . فعرّج عن الطريق منفتشاً لعله يجد كوخاً او مغارة يبيت فيها ليلته واذا بمغارة بانت على مقربة منهُ وما احسّت بهِ حتى اجفلت وولت هاربة فتبع آثارها حتى وصل الى شجرة قديمة العهد بالقرب منها شيخ تسقط على صدره لحية بيضاء وقد تقنّن جبينه وتجعّد وجهه باسارير عميقة وكان منهوك القوى شاحب اللون ليس فيهِ من علامات الحياة

الّا باصرتان وقادتان تلمعان من خلال حاجبين طويلين منسدلين عليهما .

ولما دنا منهُ نعمة تكلف الشيخ التبسُّم وحيّاه بلطف قائلًا : « اهلًا بك يا بنيَّ » . فعرف الشاب انهُ امام احد الجبناء . وسألهُ المبيت عنده تلك الليلة ليتمكن من مواصلة طريقه صباح الغد . فقال الشيخ : يحلو لي يا بني ان اقاسمك تحت سقفي الحقير خبزًا جادت بهِ عليَّ يد المحسنين

وسار الناسك قدام الغلام الى ان بلغا اطلال بناء كبير فقال الشيخ : ان هذه خرائب دير فخيم قد اخنى عليهِ الدهر ترجع فيه آثاره الى عهد بعيد وقد هدمهُ المصريُّون يوم زحفوا على لبنان . فواصلا السير بين الانقاض الى ان وقف الناسك امام باب صغير في لحف رابيةٍ واشار الى الشاب أن : قِفْ فقد وصلنا . فاحنى الامير نعمة رأسهُ وولج الباب واذا بغرفة واسعة لمح على احد حيطانها صليباً كبيراً . وكان قرب النافذة الوحيدة منضدةٌ صغيرة ومقعد من خشب عليهِ حصيرة

ثمَّ همَّ الحبيس بتهيئة الطعام لضيفه فقدَّم لهُ على المنضدة من احسن ما عنده خبزًا من شعير ولبناً وعسلًا واثمارًا من بستان كان هو القائم بخراجته . فاستلذَّ الفتى طعام الناسك وجاهر انهُ لم يذق اطيب منه بأيامهِ السابقة واستهلَّ الشابُّ الحديث بعد العشاء قائلًا : « ما الطف هذه المعيشة وما اسعد حظَّك ايها الناسك . انَّ نفسي في حالة يلذُّ لي معها المكوث بين هذه الاقفار »

ولم يلبث ان دعاه سياق الحديث الى سَرْد خبره وخبر ابيهِ وعلى رغبتهِ في اعتزال الدنيا ليكفّر عن مآثم والده

وبينما كان الشاب يمثّل فصول روايتهِ المفجعة كان الناسك مقبلًا اليهِ وعيناه شاخصتان الى محياه الوسيم وقد اخذ منهُ التأثر كل مأخذ وقال : أأنت حقًّا ابنَ من كان يُعرف بالامير الحارث بن سَلَمة؟ قال : نعم وهل لك معرفة بوالديَّ؟ اجاب : « لي بهما معرفة » واستتلى بتزيد اللهف : « اسفًا على تلك الاميرة المسكينة ويا لك يتيماً اهلًا للشفقة والحنان . فلا ريب انك قذفت اباك باشنع اللعنات لانهُ المسبّب الوحيد لما حلَّ بك وبامك المسكينة من اصناف الشقاء والتعاسة

قال الشاب بحدَّة : معاذ الله ايها الشيخ لا يجوز لابن ان يلعن اباه فلا بدَّ ان ابي قد تاب واستغفر الله ونال من مراحمهِ تعالى العفو عن ذنوبهِ قبل مماتهِ ولعلهُ الآن في

السماء يشفع لي مع والدتي الحنون »

واغرورقت عيناه بالدموع فمسحهما واردف : بسطتُ لك ايها الناسك اني تركت الدنيا وما فيها لاعتزل في احد الاديار البعيدة . ويظهر ان ملاكاً سمويًّا هدى خطواتي اليك فقد وجدت عندك جلَّ ما تطلبهُ نفسي . فهل يثقل عليك ان اقضي حياتي هنا حيث يتوفر لي ادراك الغاية التي ارمي اليها ؟

قال الشيخ : لك ما تريد . فاننا نصرف وقتنا بالصلاة والعمل والتقشف فأكفر عن آثامي وتكفر عن آثام غيرك . وطعامنا على ما رأيت اثمار من هذا البستان وصدقة خصَّصنا بها محسنو البلدة المجاورة نذهب ونطلبها كل سبت . وهذا لعمري كثير على من استحقَّ باثامهِ نيران الجحيم

ثم نزل به الناسك بين الانقاض على درج ضيق تأكلت حجارته على توالي الايام . فبلغا معبدًا صغيرًا لم تذهب السنون ببهجتهِ وحسن روائهِ ومتانتهِ وبقي جميع ما في داخله آيةً في الفن والاتقان ولم تؤثر الرطوبة بشيء على صور الجدران الجميلة فبقيت بهجةً للناظر وموعظة للمتأمل . وكان كاهنٌ يأتي ثلاث مرات في الاسبوع من دير مجاور يقيم ذبيحة القداس على مذبح المعبد المزدان بزهور تفوح منها اطيب الروائح

وبعد ان تلا الناسك صلاة المساء رجعا الى الغرفة وقدَّم الشيخ لضيفهِ سريرهُ الخاصَّ . اما هو فرقد على اوراق شجر يابسة جمعها في احدى الزوايا . وشرع الجليس يهتمُّ بأمر راحة رفيقهِ الجديد ويعتني بهِ عناية الامّ بأعزّ اولادها ومع مضاعفتهِ الصوم والسهر والنوم على الحجارة والسكوت في الكنيسة طول الليل جاثياً لم يكن ليسع للشاب ان يسترسل مثله في اعمال التقشف والاماتة خوفاً على جسمه النحيف ولعلمهِ انهُ رجل نقي الضمير طاهر الذيل لم يأتِ اثمًا يوجب عليه التكفير مع ما قاسى في شبابه من العذابات المرَّة فلم يألُ جهدًا في توفير اسباب الراحة لزائرهِ ليحبب اليهِ العيشة النسكيَّة والثبات في هذه الحالة الجديدة . وكان اذا ما اخذ الشاب ليسرد تفاصيل ما جرى لهُ بعد موت والدته ذاكرًا ما قيل لهُ عنها يُقبل اليه الناسك مصغياً بلذَّة وارتياح مثنياً على الاميرة وعلى ما عرف فيها من المحامد ومحاسن الاخلاق

وقد اذن للشاب ان يتصرَّف بكل ما في الدومة كيفما شاء ولم ينهاهُ الَّا

عن فتح صندوق صغير كان الناسك أثقله ووضعهُ قرب سريره محتفظاً عليهِ كل الاحتفاظ موصياً رفيقه ان يفتحه بعد موته

وكان الناسك الشاب يصرف وقته بالعمل في البستان والصلاة مع الشيخ . وقد كان مغرماً بتسريح رائد الطرف في محاسن الطبيعة الفتّانة منتبهاً الى ما توحي اليه . ولا توحي مشاهدُ الطبيعة الى النفوس البارّة غير الطهر والصفاء . فكان الثلج في الشتاء يُلبس تلك الاطلال وما حولها من الاشجار الشاهقة ثوباً ناصع البياض تتدلّى من اطرافها اصابع من جليد يخالها الناظر حين تلقي عليها الشمس شعاعها الذهبية قطعاً من الياقوت والمرجان وكان يثير هذا المنظر فيه اشجى العواطف فينالهُ منهُ بعض الوحشة لا تلبث ان تتقشع غياهبها ويعقبها سرور وابتهاج حين تشرق شمس الربيع وتتعطّر الانحاء وتكتسي الارض والاشجار ابهى الحلل واسناها مما يرفع العقل الى جنات الخلود حيث لا تذبل الزهور ولا يزول السرور

ففي ذات يوم استأذن الشاب الناسك في الذهاب الى جبل اللكّام ليزور قبر امهِ . فقام الناسك وهمّ برافقته غير انه ما سارا مسافةً وجيزة حتى شعر الشيخ بانحطاط في قواه منعهُ عن متابعة السير فعاد الى صومعتهِ وذهب الشاب وحده . فنزل الشيخ الى المعبد يصلّي وكان هناك صليب كبير من الرخام الابيض اللامع معلقاً فوق المذبح ضمن اطار من حجر وقد اجادت فيه يد احد النقاشين المشهورين كل الاجادة فجاء غاية في الاتقان والدقّة والابداع حتى خيل للناظر الى محيّا المصلوب انه يقرأ عليه مع تمثيل الالم الشديد آيات الهيبة والوقار والتسليم . وكان يزيد المشهد خشوعاً نافذة فتحت بكل إحكام في حائط المعبد ترسل الشمس منها نوراً خفيفاً على هامة المصلوب . ولم يكن هذا النور الضئيل الّا ليولهُ بهاء وخشوعاً . أمّا نفس الناسك فكانت ترتوي من امعان النظر في ذاك الصليب الجميل . فكان يقضي الساعات الطوال على ركبتيه وعيناه شاخصتان الى تلك الهامة المقدسة وقلبهُ واعٍ لما يُنزل عليه منظرهما الخشوعي من جليل المواعظ اذ لا دواء انجع للنفوس الحزينة من التأمل بصورة الاله المتألم

وعند ما كانت نفس الناسك تلتهب من شدّة التأثر كان فمهُ تتدفّق منهُ صلاةٌ حارّة تخرج من اعماق فؤاده الكليم قائلاً : « يا ربّ ! ليكن الارجاع وضحيّة

زكيّة عن كل الآثام لقد دعوتك يا ربّاه بقلب جريح اعواماً طوالاً سمّرتُ معك في اثنائها نفسي على صليب الاوجاع لتُدميها الاشواك والمسامير. فهل ارتضيتَ يا ربّاه بكفّارتي ؟ وهل كفّت الدموع التي ذُرفت لترحض اوساخ آثامي ؟ وهل أهّلتني توبتي وطول صبري وآلامي لأن ارى يوماً وجهك الكريم ؟ . . . »

٥

عاد نعمة بعد ايام من جبل اللكّام ونزل الى المعبد فرأى الحبيس جاثياً على مسجده فلاح للشاب انه غارق في بحر التأمل العميق فلم يلتفت الى ضجّة الداخل . فصلى نعمة برهة ثم دنا من الشيخ ومدّ يدهُ اليهِ فلم يلتفت . فقلق الشاب لهذا الجمود وهزّ بيده رأس الناسك محدقاً النظر في وجههِ فاذا هو جثّة هامدة لا حراك فيها فتأكد ان مرشدهُ قد مات . فبكاه بكاء مرًّا ووضعهُ على منصّةٍ في صحن الكنيسة ولم تكن يد المنيّة لتقوى على تغيير شيء من نعومة اعضائه . وقضى الليل في الصلاة لراحة نفسه

وفي اليوم الثاني حضر الكاهن على مألوف العادة ليقيم في الصومعة ذبيحة القداس فوجد الشاب جاثياً يصلي قرب جثة الناسك فاهتمّا بإعداد الحفلة اللائقة لدفنه . ثمّ تذكّر الشاب ان الناسك قال لهُ مرارًا بان يفتح الصندوق بعد مماتهِ . فاسرع وحده الى الغرفة وفتح الصندوق فوقعت عينهُ على شيءٍ اذهلهُ وهو علبة صغيرة من الشعر الاشقر الناعم وصليب من الذهب المرصّع بالجواهر موضوع على ورقة مطويّة كُتب فيها : « انا قاتل الامير حارث بن سلمة . فررتُ من السجن وقاسيت اشدّ الاهوال الى ان لجأت الى هذه الصومعة اكفّر فيها عمّا مضى وآخرُ ما قدّمت كضحيّة لله ضبطُ سرّي عن ولدي فما عرّفتهُ بنفسي . اشكر الله على انه اعاده اليَّ سالماً فليغفر لي الرب كما اني آمل ان والدته قد غفرت لي وارجو ان تُدفن جثتي قرب جثتها — الويل ثم الويل لمن تجرّهُ الشهوات الى الاستيلاء على مال القريب ظلماً واحتيالاً ويُشقي مَن عليه يتحتّم إسعادهم . فالله عادل صلّوا لاجلي »

فعلا نحيب الشاب عند هذه المفاجأة واسرع الى الكنيسة ووقع على وجه والده يقبّلهُ وقد بلّل جثمانه بأحرّ العبرات مستسلماً للكآبة والاسى الى ان وقف الكاهن على خبره فسكّن روعهُ واخذه الى الدير واهتموا في اليوم التالي بتنفيذ وصية الناسك

ولبس نعمة بعد ذلك اسكيم الرهبانيّة واقام في صومعة قرب قبر والديه وعاش

عمرًا طويلًا وبلغ من التدلسة درجةً سامية فكرَّمه الناس واستشفعوه. وبعد موته بعدَّة سنين ظلُّوا سلفاً عن خلف يتحدثون بمخبر الوالد وفضائل ابنه التي بقي ذكرُها حيًّا يعطر اريجها الانحاء. ولسانُ حالهم يقول :

وربَّ أكلةٍ منعت اخاها بلذَّة ساعةٍ أكلاتِ دهرِ
وكم من طالبٍ يسعى بشيءٍ وفيه هلاكه لو كان يدري

خطبة في رأس العام

للجاثليق اليًا الثالث المعروف بابي الحليم ابن الحديثي

المقدمة

بين المخطوطات التي دخلت في العام المنصرم في مكتبتنا الشرقيَّة كتاب متوسط الحجم عريض الجانبين مجلَّد بجلد احمر قاتم ومخطوط على ورق صفيق وبقلم غليظ عدد صفحاته ٢٨٠ وتاريخهُ سنة ٧٠٤٣ لآدم (١٥٣٥ م) وهو يحتوي على خطب الجاثليق انطوري ايليًا الثالث الشهير بابي حليم ابن الحديثي المتوفى سنة ١٥٠١ للبوتان (١١٩٠ م) . وخُطبهُ هذه شهيرة طبعها في الموصل القس يعقوب الكلداني سنة ١٨٧٣ ثمَّ تجدَّد طبعها تحت عنوان « التراجيم السنية للاعياد المارانيَّة سنة ١٩٠١ ومنها ثلث نسخ في مكتبتنا الشرقيَّة . وفي كل منها بعض خطب لم تذكر في الطبعة الموصلية . وقد نشرنا منها قسماً في المشرق سابقًا . وكنَّا قتاز بلاغتها وطلاوة سجعها دون تكلُّف . وفي هذه النسخة الجديدة التي عثرنا عليها صدفتنا الكتبيّ يوسف افندي اليان مركيس في مصر خطبٌ لم نرَ طبعها في جملها . وها نحن نروي الاولى منها بمناسبة رأس العام الذي يُعرَّف ايضاً بالنيروز وهي لفظة فارسية تدلُّ على اوَّل يوم السنة . واما اسم الغرجام فلفظة سريانيَّة بمعنى الموعظة . وهذه الخطبة يتلوها الاقباط في كنائسهم دون تعريف مؤلفها وقد دسَّرنا فيها مناداة الخطيب لرؤساء كنيستهم ل . ش

ترجام لانيروز

الحمدُ لله معرِّف الأعمار بالأعوام والأعوام بالشهور ، مميِّز الشهور بالأيام والجُمَع والأهلَّة والبدور ، مزيِّن الحياة بالامن زينةَ الطروس بالسطور ، ومكمِّلها بشريف المناقب وحميد المواقب والفرح والسرور ، نحمدهُ على ما وهَبَنا من البركات في الاولاد